الآيات من 122 - 123

تذكير بالنّعمة وتخويف من الآخرة

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

أسباب النزول والمناسبة

المعنى العام

يقول الحقّ ﷻ: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ بأن جعلت الأنبياء تسوسكم، والملوك منكم يدبّرون أموركم، ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وفضّلتكم على عالم زمانكم، فاشكروا هذه النّعم بالإيمان بالرّسول الذي أرسلته إليكم، ﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا﴾ وخافوا أهوال يوم القيامة، ﴿لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ اليوم الذي لا تغني فيه نفس عن نفس شيئًا، فلا يقبل منها فداء إن أرادت الفداء، ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ ولا تنفعها شفاعة شافع، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ولا يدفع عنها أهوال ذلك اليوم وليّ ولا ناصر، إلا من اتّخذ يدًا عند الملك القادر.

لطائف الإشارات للسّلوك والتّزكية في الآيات

ما يستخلص من الآيات

في العقيدة

من هدي الآيتين:

١. إنّ القرآن الكريم يفرّق بين الخطاب لبني اسرائيل واليهود. فبنو اسرائيل يذكرهم بالمدح وما خصّهم به من النّعم والتّفضيل فمنهم الرّسل والأنبياء والصّالحون (كيعقوب ويوسف وموسى وداود وسليمان وزكريّا ويحيى وعيسى ﷺ وغيرهم كثير)، أمّا اليهود فدائمًا يذكرهم باللّعن والغضب، ويذكر مكرهم وخداعهم وسوء أخلاقهم، فهم الذين كفروا بموسى باطنًا واتّبعوا السّامري الذي هو الدّجال، وادّعوا اتّباعهم لموسى ظاهرًا نفاقًا واحتيالًا، ثمّ انضمّ إليهم يهود الخزار من غير بني إسرائيل، وهم يهود الفلاجة من الحبشة.

٢. جرت سُنّته سبحانه في الخطاب مع قوم موسى ﷺ أن يناديهم بنداء العلامة فيقول: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ﴾، أي يا بني يعقوب، ويخاطب هذه الأُمّة بنداء الكرامة، فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٣. وجوب ذكر نعم الله على العبد ليجد بذلك دافعًا نفسيًّا لشكرها، إذ غاية الذّكر هي الشّكر.

٤. وجوب اتّقاء عذاب يوم القيامة بالإيمان وصالح الأعمال، بعد التّخلّي عن الشّرك والعصيان.

٥. استحالة الفداء يوم القيامة، وتعذّر وجود شافع يشفع لمن مات على الشّرك. لا بإخراجه من النّار، ولا بتخفيف العذاب عنه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾[1].

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

٦. قوله ﷻ: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ أَمَّا الأعداء فلا يُقْبَلُ منهم شيئًا، وأمَّا الأولياء فقال ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»[١]، والكفّار لا تنفعهم شفاعة الشّافعين، فهذا حكم كلّ أمةٍ مع نبيّها. وأمَّا المؤمنون- فعلى التّخصيص- تنفعهم شفاعة نبيّهم ﷺ، وكلُّ أحدٍ يومئذٍ يقول نفسي نفسي ونبيُّنا ﷺ يقول: «أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ»[٢].

قال رسول الله ﷺ: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي»[٣]، فلعلّ رحمة ربّي حين يقسمها، تأتي على حسب العصيان في القسمِ. عن أبي هريرة ﷺ أنّ النّبيّ ﷺ قال: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا»[٤].

مبادئ المسؤولية والمحاسبة الربّانيّة

نجد الإعلان عن هذا المبدأ من مبادئ المسؤوليّة والمحاسبة الرّبانيّة في نصوص كثيرة منها ما يلي:

١. قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

٢. قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا* اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٥].

٣. قوله تعالى في سورة النّجم: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[٦].

٤. قوله تعالى في سورة غافر: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[٧].

٥. قوله تعالى في سورة المدثر: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[٨]. ولذلك قال النّبيّ ﷺ للأقربين من عشيرته، ونادى جملةً من صفوة أقاربه، حتّى بلغ فاطمة ابنته ﷺ، فقال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ- أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»[٩].

في الأمر والنّهي

- **احذَرْ أن تكون "عبدًا للنّعمَةِ"، وكُن "عبدًا للمُنعِمِ"**. ولا تعلّق قلبَك بالنّعمةِ، فإنّ هذه النِّعَمَ ستُفارِقُك يومًا، عاجلًا أم آجلًا. **فلا تجعلِ النّعمةَ تُنسيك المُنعِمَ**... أبدًا.
- الاستسلامُ التّامُّ لقضاءِ الله، والثّقةُ بأنّ كلّ ما هو مِن عندِه خير. صفتان تملآن القلب شكرًا، وتجعلان المرءَ يصبر عند البلاء. قال رسول الله ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذاكَ لأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصابَتْهُ

(١) رواه البخاريّ في صحيحه، عن عدي بن حاتم، حديث رقم: ١٤١٧، كتاب: الزكاة، باب: اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة.
(٢) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٤٧١٢، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿ذرية من حملنا مع نوح﴾.
(٣) رواه الحاكم في المستدرك، عن أنس بن مالك، حديث رقم: ٢٢٨، كتاب: الإيمان، باب: وأما حديث سمرة بن جندب، الحديث صحيح.
(٤) رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ١٩٩، كتاب: الإيمان، باب: اختباء النّبيّ ﷺ دعوة الشفاعة لأمته.
(٥) سورة الإسراء، الآيات: ١٣-١٤. (٦) سورة النجم، الآيات: ٣٨. (٧) سورة غافر، الآية: ١٧. (٨) سورة المدثر، الآية: ٣٨
(٩) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٤٧٧١، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾.

سَرّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصابَتْهُ ضَرّاءُ، صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا لَهُ»[١].

فلا تقعْ في فخّ الشّيطان الّذي يذكّركُ بالبلايا ويُنسيكَ النّعَمَ فتكون ممّن يرفضُ ويَعترضُ، فَيكفُر بالنّعمة أو يُنكِرها وينسى ما مضى من نِعَم... وهذه صفة العبد الكفور الجاحد.

في الأخلاق والآداب

من الأخلاق المحمّديّة: الشُّكر

هذا الخُلُقُ مُستَمَدٌّ مِن اسمِ الله تعالى "**الشَّكور**".

والتّخلّقُ به يكون بتذكّر نِعمه على الدّوام وعليك أن تنسبَ كلَّ نعمةٍ عندَكَ إلى الله تعالى، . وقد قال ﷺ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ...﴾[٢]. وبأن ترى أنّ الله تعالى أعطاك مِنَ النّعم أكثرَ بكثير ممّا تستحقّ، وأنّك مهما فعلت فلن تؤدّي شكرَ هذه النّعم. ومنه شكر ما يقدّمه لك العباد من خير، وذلك بتعظيم العطاء اليسير والجزاء عليه بالكثير **ومَن لم يشكرِ القليلَ لم يشكرِ الكثيرَ**، ومن لم يشكرِ النّاس لم يشكرِ الله، كما قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ لا يَشْكُرُ النّاسَ لا يَشْكُرُ الله**»[٣]. ولا يحقّ لعبد أن يحلم بأكثر ممّا قسمه الله له، فذلك يتعارض مع مبدأ شكر النّعم، لأنّ شيطانك يزهّدك بما لديك، فتمدّ عينيك إلى ما عند غيرك من النّعم.

- هل فقدتَ مالك بسببِ الوضعِ الاقتصاديّ الرّاهِن؟ أم هل فقدتَ صحّتكَ فصعبتْ عليك الحياة؟ أم هل فقدتَ محبوبًا فلم تَعُد تَجِد طعمَ السّعادة؟ كلٌّ منّا لديه نصيب كبير مِنَ المشاكِلِ والهُموم. ولكن في المقابل، أليس لدينا أمورًا أخرى كثيرة تستحقّ الشّكر؟ إنْ تَخَلَّقْنا بخُلُق الشُّكر، ما عدنا نذكرُ البلايا وننسى النّعم، بل أمسينا نذكرُ النّعمَ فننسى البلايا... "الشّكر" مفتاحٌ للسّعادةِ، ودواءٌ للكآبَةِ، وأعظمُ بابٍ لازدياد محبّةِ الله. قالَ الله تعالى: ﴿... لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ...﴾[٤].

الشّكرُ هو الاعتراف بالنّعمةِ بالقلبِ واللّسانِ والفِعلِ.

فَشُكرُ اللّسانِ هو أن تتلفّظَ بقولِ "الحمد لله" و "الشّكر لله" دائمًا، وأن لا تُرى شاكيًا.

وشكرُ القلبِ هو أن تشعرَ بالامتنان، حتّى يمتلِئ قلبُك حبًّا لله تعالى..

وشكرُ الجوارح هو ألّا تستعملَ نعمةً مِن نِعَمِ الله تعالى عليك في معصيةِ الله: السّمعِ والبصرِ والكلامِ والمالِ والولدِ..

والعبدُ الشّكورُ هو الّذي يَذكُرُ نِعَمَ الله عليه دائمًا سواء كانت موجودة الآن أم لا. قال الله تعالى: ﴿وأمّا بنعمةِ ربّك فَحَدِّثْ﴾[٥] أي حَدِّثْ نفسَكَ دائمًا بِما أنعَمَ الله بِهِ علَيكَ.

- خُذ دقيقةً واحدةً وتفكّر، في الأشياء الّتي وهبها الله لك وأنت تستعملُها يوميًّا وترى أنّها حقًّا نِعمة. فكّر في البيت الّذي يأويك سواء كان صغيرًا أو كبيرًا، بسيطًا أو فاخرًا، قديمًا أو جديدًا. فكّر في نِعمةِ الحركةِ، فكم مِن مُقعَدٍ ومريضٍ ملازمٍ الفراشَ ولا يستطيعُ حتّى أن يخدمَ نفسه. ماذا عن وقوفِك على رجلَيكَ حين تستيقظ، هل تعتبره نِعمةً؟ ماذا عن نعمةِ البصرِ (إذا أردت أن تعرفَ نعمة الله عليك، فاغمض عينَيكَ)... نِعَمٌ كثيرة لا تعدّ ولا تُحصى،

(١) رواه مسلم في صحيحه، عن صهيب. رقم الحديث: ٢٩٩٩. كتاب: الزّهد والرّقائق. باب: المؤمن أمره كلّه خير.
(٢) سورة النّحل، الآية: ٥٣.
(٣) رواه التّرمذيّ في سننه، عن أبي هريرة. حديث رقم: ١٩٥٤. كتاب: أبواب البرّ والصلة، باب: ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، الحديث صحيح.
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٧.
(٥) سورة الضحى، الآية:١١.

قال الله تعالى: ﴿وإِنْ تَعُدّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصوها إِنَّ اللهَ لَغَفورٌ رَحيمٌ﴾[1].

- نحنُ دومًا ننظُرُ إلى ما أُخِذ منّا ولا ننظرُ إلى ما أُعطينا. فالّذي يتذمّر مِن الفوضى الّتي يُحدِثُها أبناؤه، ألا يجب عليه أن يشكرَ الله لأنّه رزقه أبناء؟ والّذي يتذمّرُ من الضّرائبِ الّتي يدفعُها أو من صعوبةٍ في عملِهِ ألا يشكر الله أنّ عنده مدخولًا بينما ملايين مِن النّاس عاطلون عن العمل؟ فالحمد لله... الحمد لله...! صدق رسول الله ﷺ حين قال: «أَحِبُّوا اللهَ لِما يَغْذوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ...»[2]. النّفس مجبولةٌ على حبّ من أحسنَ إليها. فكلّما تذكّرنا نِعَمَ الله علينا كلّما ازددنا حبًّا له وزادنا الله تعالى سعادة ورضا.
- لم لا ننتقلُ من شكرٍ يخرجُ مِن اللّسان إلى شكرٍ يملأ القلبَ وتترجمُه الجوارحُ؟ ألا تستحي مِن الله، مَن أنعمَ عليكَ بنعمةِ البصرِ أن تستعملَ عينك في معصيتِه لترى فيها عيوبَ الآخرينَ وتنظرَ إلى مشاهد لا أخلاقيّة؟ وتستخدم لسانك للغيبة بدل نشرِ الخير؟ وجمالُك، سيّدتي، تبذّينه لجذب الانتباه في غير موضعه بدل الحشمة والوقار؟ ألا نتأدّبُ مع الله ونحسنُ استعمال نِعَمِهِ علينا؟

في السّيرة والشّمائل

قصّة مِن حياة النّبيّ ﷺ ومن حياة سيّدنا "عمر" رضي الله عنه:

كانَ رسولُ الله ﷺ يَقومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتّى تَتَفَطَّرَ قَدَماهُ، فَقالَتْ السّيّدة "عائِشَةُ" رضي الله عنها: لِمَ تَصْنَعُ هَذا يا رَسولَ اللهِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذنْبِكَ وما تَأَخَّرَ؟ قالَ: «أَفَلا أُحِبُّ أن أكون عَبْدًا شَكورًا»[3]. ولنا في رسولِ الله أُسوةٌ حَسَنة.

قال سيّدنا "عُمَر" رضي الله عنه: "كلّما جاءَني بلاءٌ، حَمَدْتُ الله على ثلاثَةِ أشياءَ: حَمدتُ الله تعالى أن لا يكونَ في ديني- أي البلاء-، وحمدتُ الله تعالى أن لا يكونَ هذا البلاءُ أكبر، لأنّ أيّ بلاء يمكن أن يكونَ أكبر، وحمدتُ الله تعالى أن أكرَمَني بالصّبرِ وَأكرمَني بالرّضى، وأن أرى أنّ هذا البلاءَ مِن نِعَمِهِ الباطنة."

ما أجملَ هذا الحالَ! ثقةٌ بِتقديرِ الله، وَرضى بقضائِهِ وَقَدَرِهِ وَشكرٌ على اختيارِهِ! عسى أن يكونَ هذا حال كلّ مؤمنٍ!

(١) سورة النّحل، الآية: ١٨.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك، عن ابن عبّاس. رقم الحديث: ٤٧١٦. كتاب: معرفة الصّحابة رضي الله عنهم. باب: ومن مناقب أهل رسول الله ﷺ. الحديث صحيح.

(٣) رواه البخاريّ في صحيحه، عن عائشة -رضي الله عنها-. رقم الحديث: ٤٨٣٧. كتاب: تفسير القرآن. باب: ليغفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر.

- في السّلوك
- في الإعجاز العلميّ
- في أشراط السّاعة
- في الأدعية والأذكار

قال رسول الله ﷺ: «من قال حينَ يُصبِح: اللَّهُمَّ ما أصبَحَ بي من نعمَةٍ أو بأحدٍ مِن خلْقِك، فمِنكَ وحدَكَ لا شريكَ لك، فلكَ الحمدُ ولكَ الشُّكرُ، فقد أدَّى شُكرَ يومه، ومَن قال مِثلَ ذلك حينَ يُمسِي فقد أدَّى شُكرَ ليلَتِهِ»[1].

(١) رواه أبو داود في سننه، عن عبد الله بن غنام، حديث رقم: ٥٠٧٣، كتاب: أبواب النوم، باب: ما يقول إذا أصبح.